وبيانٌ للمستحقين لهذه الأسماء على الحقيقة الواجبة لهم، والتي يترتب عليها السعادة التامة في الدنيا والآخرة، وذكرٌ لحدودها بكلام جامع شامل.

١ ـ فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا تمكن في القلب، وامتلأ القلب به أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم، ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه وأمنوه على دمائهم وأموالهم ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان كما قال ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له»**[1].

٢ ـ والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وذلك أن الإسلام الحقيقي هو الاستسلام لله وتكميلُ عبوديته

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن حبان (١٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه. وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (٤٢).

والقيام بحقوق المسلمين ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده، فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه المسلمون، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ ومن بسط في المسلمين يده ولسانه أذىً وعدواناً أين هو من تحقيق الإسلام؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفي هذا دلالة على أن المؤمن أعلى رتبة من المسلم، فإن من كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتُهم منه لما ائتمنوه، وليس كلٌّ من سلموا منه يكون مأموناً عندهم، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة أو رهبة لا لإيمان في قلبه.

ففسر المسلمَ بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه، وفسر المؤمنَ بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة أعلى من تلك.

٣ ـ والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، وذلك أن النفس ميالةٌ إلى الكسل عن الخيرات، أمارةٌ بالسوء، سريعةُ التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه هي الطاعات، امتثال المأمور واجتناب المحظور، والصبر على المقدور، فالمجاهد حقيقة من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى

والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويحتمل ذلك كله لله، ذكر هذه المراتب العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه**»[2].

وإذا قصّر المسلمون في جهاد أنفسهم ضعفوا عن جهاد أعدائهم، فيحصل بذلك ظهورٌ لأعدائهم عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله»[3]. اهـ.

٤ ـ والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، وهذه

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦).

(٢) رواه ابن النجار عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٠٩٩).

(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٦/ ٤٥٠).

الهجرة فرض عين على كلِّ مسلم لا تسقط عن كل مكلّف في كل حال من أحواله، فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات والإقدام على المعاصي والذنوب، وأوجب عليهم الإقبال على طاعته واتباع رسوله ﷺ، وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غير الله إلى عبوديته، ومن خوف غير الله ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غير الله وسؤاله والخضوع له والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. ومن غِشْيان الذنوب وارتكابها إلى التوبة منها، والإقبال على الله وحده خوفاً وطمعاً وخشوعاً وتذللاً. وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: **«المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»**[1]. والله ﷻ نهى عن الشرك، وعن اتباع الأهواء، وعن فعل المعاصي والذنوب، فالمهاجر حقاً من هجر هذه الأمور وأقبل

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (١٠)، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

على الله وحده مخلصاً، ولنبيه ﷺ متابعاً، وللذنوب والمعاصي مجانباً ومباعداً.

وعلى كلٍّ فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كلِّه: من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يُبْقِ من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه، والله وحده الموفق[1].

(١) ينظر بهجة قلوب الأبرار لابن سعدي (١٧ ـ ١٩).

[٨]
الدعوة لحملة السُّنَّة بالنَّضرة

ومن خطب النبي ﷺ في حجة الوداع خطبته بالخيف من منى كما في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائهم**»[(١)].

رواه أحمد وابن ماجه والدارمي والحاكم وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب**

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٨٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، والدارمي (٢٢٨)، والحاكم (١/ ٨٦ ـ ٨٧). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل له، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم»[1]. رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان وغيرهم، ورواه أبو نعيم في كتابه أخبار أصبهان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ في هذا المسجد مسجد الخيف»، فقال: وذكر الحديث[2].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم.** وقال:

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وأحمد (١/ ٤٣٧)، وابن حبان (٦٦). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٦١).

(٢) رواه أبو نعيم في «أخبار أصبهان» (٢/ ٩٠).

من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلّا ما كتب له». رواه أحمد والدارمي وابن حبان وغيرهم[1].

وقد روى هذا الحديث جمع من الصحابة بلغت عدتهم أكثر من عشرين صحابياً منهم غير من تقدم: معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، والنعمان بن بشير، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله ﷺ، ولذا عدّه غير واحد من أهل العلم في جملة الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، ولعل من أسباب تواتره كون النبي ﷺ خطب به الناس في مسجد الخيف من منى.

والخيف ما ارتفع عن مجرى السيل، وانحدر عن غلظ الجبل، ومسجد منى يسمى مسجد الخيف لأنه في سفح

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (٢٢٩)، وابن حبان (٦٧). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (٦٣).

جبلها، وهو في زماننا هذا مسجد كبير واسع يتسع لآلاف المصلين مع كافة خدماته، قامت على بنائه والعناية به الدولة وفقها الله وحرسها، وتقام فيه أيام الحج دروس عديدة، كما خصص فيه أماكن متعددة لإجابة المستفتين وإرشاد السائلين.

وإنما خطب ﷺ الناس بمنى ليتلقى عنه الجمع الغفير الذي شهد حجته ﷺ تعاليم الدين، ويبثوا ما يسمعونه في أقطار الأرض.

والحديث بمجموع طرقه يشتمل على أربع جمل رئيسة:

الجملة الأولى: هي المشتملة على الدعوة لسامعي الحديث ومبلغيه غيرهم.

الجملة الثانية: هي المتضمنة بيان الفائدة من تبليغ الحديث وهي استنباط ما فيه من الفقه.

الجملة الثالثة: المبدوءة بقوله ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم...**».

الجملة الرابعة: المبدوءة بقوله ﷺ: «**من كان همه الآخرة جمع الله شمله...**».

وقد صدّر ﷺ حديثه هذا بدعوة مباركة ميمونة، خص بها

رسول الله ﷺ من سمع حديثه، ووعاه وبلّغه كما سمعه، ولو لم يكن في فضل العلم وبيان شرفه إلّا هذا الحديث لكفى به شرفاً، فإن هذه الدعوة النبوية الكريمة المباركة متضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان، وابتهاجِ الباطن به، وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه، ولهذا يَجْمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١]، فالنضرة في وجوههم، والسرور في قلوبهم، ثم ما يتلقون من نعيم وثواب على ذلك يظهر نضارة على وجوههم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٤].

ولا ريب أن هذه الدعوة المباركة لمن حمل السنة وبلغها للأمة بالنضرة تحمل البشارة لمن وقف نفسه، ووفر جهده لخدمة السنة وإبلاغها، وفي هذا حفز للهمم وإذكاء للعزائم، وحمل للنفوس على الجد والمثابرة، والصبر والمصابرة، وبذل الوسع في تحقيق ذلك.

وقد دل الحديث على أن للعلم الذي استحق أهلُه هذه البشارة أربعَ مراتب:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه ووعاه بقلبه، أي: عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عَقْلُه هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب.

والمرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

والمرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده، وهو بثه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنفق منه وهو معرض لذهابه، فإن العلم ما لم يُنفق منه ويُعلَّم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أُنفق منه نما وزكا على الإنفاق.

وإنما دعا ﷺ لسامع السنة ومبلغها بالنضارة جزاءاً وفاقاً لما قام به من بثها، وجعلها بذلك غضة طرية، وسعى في نضارة العلم وإحياء السنة فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وقد جاء عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه قال: «ما من أحد يطلب الحديث إلّا وفي وجهه نضرة».

[٩]
ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب المسلم

سبق ذكر خطبة النبي ﷺ في مسجد الخيف بمنى، وبيان اشتمالها على أربع جمل رئيسة مضى الحديث عن الجملة الأولى منها وهي دعوته ﷺ لمن سمع حديث النبي ﷺ ووعاه وحفظه وبلغه كما سمعه.

أما الجملة الثانية: وهي المتضمنة لبيان الفائدة من تبليغ حديث النبي ﷺ وهي وصوله إلى من يكون أمكن في حفظه وفهمه، وذلك في قوله ﷺ: «**فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»، وفي الرواية الأخرى قال: «**رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»، ومعنى ذلك: أنه قد يحفظ من لا يفهم، وقد يفهم وغيره أفهم منه، والذي حفظ ولم يفهم مأجور لحفظه السنة وتبليغها، والذي حفظ وفقه أكمل

منه، فيكون مأجوراً لحفظه وتبليغه واستنباطه من الحديث ما أمكنه استنباطه فهو يبلغه لغيره، وقد يكون الذي بلغه إليه أفقه منه فيستنبط منه ما لم يفهمه الحامل.

وأما الجملة الثالثة: فهي قوله ﷺ: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**»، وهو مشتمل على هذه الخصال العظيمة التي لا يغل عليهن قلب المسلم، وقد ذكر عليه الصلاة والسلام هذه الخصال عقب دعوته لمن سمع السنة ووعاها، وحفظها وبلغها بالنضرة، وهو في غاية المناسبة، وذلك أنه لما كان هذا الثواب العظيم لمن بلغ سنة رسول الله ﷺ يفتقر كسائر الأعمال إلى الإخلاص لله، وعقد النية على النصح للمسلمين ولزوم جماعتهم عقّب ﷺ دعوته الميمونة المباركة لمبلغي سنته بما يدلُّ على أهمية الإخلاص في الأعمال لله، والنصح للمسلمين، ولزوم جماعتهم بقوله: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**»، قال ذلك؛

لأن هذه الخصال الثلاث تستصلح بها القلوب، وتهذب بها النفوس، وباستشعارها وعقد القلب عليها يكون المسلم جديراً بتحصيل الثواب الجزيل، والأجر العظيم المذكور في الحديث.

وفي قوله ﷺ في الحديث: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم**» دلالة على أن قلب المسلم لا يحمل الغلّ ولا يبقى فيه الغش، إذا كان متصفاً بهذه الصفات الثلاثة المذكورة في الحديث، لأنها تنفي الغش وتبعده عن القلب.

فالمخلص لله إخلاصه يمنع غلّ قلبه، ويخرجه ويزيله جملة، لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه وطلب ثوابه، فلم يبق فيه موضع للغلِّ والغش كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

وقوله ﷺ في الحديث: «**والنصح لأئمة المسلمين**» هذا أيضاً منافٍ للغل والغش، فإن النصيحة لولاة الأمر لا تجامع الغل إذ هي ضدّه، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل، والنصح لأولي الأمر من المسلمين إنما يكون بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكره أبراراً كانوا أو فجاراً، وإنما الطاعة في المعروف، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، وبإرشادهم للخير وترغيبِهم فيه، وتحذيرهم من الشر وتنفيرهم منه، والدعاء لهم بالصلاح والمعافاة، وعدمِ الدعاء عليهم لمنافاة ذلك للنصيحة، لأن جماع النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان.

وقوله ﷺ في الحديث: «**ولزوم جماعتهم**» وهذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل والغش، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرّه ما يسرهم، مع

الموافقة لهم في العقيدة والعمل، والحذر من الخروج عن زمرتهم؛ لئلا تتلقفه الشياطين التي تعمل في الإنسان أعظم من عمل الذئاب فيما يندُّ من الغنم.

وقوله ﷺ في الحديث: «**فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**» هو من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، حيث شبّه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوِّهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام ـ وهم داخلوها ـ لما كانت سوراً وسياجاً عليهم أخبر ﷺ أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلمُّ شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته، وبذلك أيضاً يكون للمسلم الملازم لجماعة المسلمين نصيب من دعواتهم الطيبة التي تصدر من آحادهم شاملة لعمومهم.

وأما الجملة الرابعة في الحديث: فهي قوله ﷺ: «**من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه**

ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» وهذا كله راجع إلى الخصلة الأولى من الخصال الثلاث وهي إخلاص العمل لله، فمن أخلص نيته لله وأراد الآخرة يملأ الله قلبه بالغنى، ويبعد الفقر عنه، ويلم شعثه، ويسوق إليه الدنيا من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، ومن لم يخلص عمله لله وكان همه الدنيا فإن الله يعاقبه في الدنيا بهذه العقوبات، فيسلب قلبه الغنى ويحول بينه وبين الراحة والطمأنينة فتستولي عليه الهموم، ويبدله بهذا الغنى الذي نزع من قلبه أن يجعل فقره بين عينيه فيكون دائما أمامه لا يغيب عنه، وأحاطت به النكبات من كل جانب[1].

---

(١) ينظر كتاب: دراسة حديث: **«نضر الله امرأ سمع مقالتي»** رواية ودراية، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله.

[١٠]

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾

إن من المعاني العظيمة التي أكّد عليها رسول الله ﷺ وقرّرها في حجة الوداع لزومَ تقوى الله ﷻ، والحرصَ على نيل رفيع الرتب، وعالي الدرجات بتحقيقها لا بالفخر بالأنساب والأحساب، فالكلُّ بنو آدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلّا بتقوى الله ﷻ.

روى الإمام أحمد في مسنده[1] عن أبي نضرةَ قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: **«يا أيها الناس ألا إنَّ ربكم واحد، وإنَّ**

---

(١) «المسند» (٥/ ٤١١)، رقم (٢٣٤٨٩)، قال ابن تيمية في الاقتضاء (١/ ٤١٢): بإسناد صحيح. وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٦/ ٤٥٠).

أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلّا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ».

فقرّر ﷺ في هذه الخطبة العظيمة والبيان البليغ أن التفاضل ونيلَ الفضل إنما هو بتقوى الله ﷻ لا بأيِّ أمر آخر، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات:١٣]، فأكرم الناس عند الله أتقاهم له، أي: أكثرهم محافظة على طاعته، وانكفافاً عن معصيته، إذ التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاءَ ثواب الله، والبعدُ عن معصية الله على نور من الله خيفةَ عقاب الله. وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله جلَّ وعلا عليم خبير، يعلم من يقوم بتقواه ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم، ويجازي كلّاً بما يستحق.

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «**أكرمهم**

عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ اللهِ ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبي الله ابن خليل الله**، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: **فعن معادن العرب تسألون؟** قالوا: نعم، قال: **فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»[1].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2]، وفي المسند للإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «**انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلّا أن تفضله بتقوى**»[3].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فالناس إنما

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٣٣٥٣)، و«صحيح مسلم» رقم (٢٣٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» [٣٤ ـ (٢٥٦٤)].

(٣) «مسند أحمد» (٥/١٥٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٥٠٥).

يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، والصور والأموال، والله ﷻ رتب الجزاء والثواب على تحقيق التقوى، والقيام بطاعته سبحانه، فبذلك تثقل الموازين وترتفع الدرجات.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٣].

وفي الحديث قال ﷺ: **«ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»**[1]، ومعناه: أن العمل هو الذي يَبْلغ بالعبد درجات الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فمن بطّأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغ به تلك الدرجات، فإن الله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩)، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١][1].

فهذه الآيات ونظائرها كثيرٌ في القرآن تدل أن الفوز برضى الله، والسبق إلى المنازل العالية إنما هو بالأعمال الصالحات، والطاعات الزاكيات، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وفعل طاعته وطاعةِ رسوله ﷺ، لا أن يعول الإنسان على حسب أو نسب، أو مال أو جاه أو غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «إذ الفضل الحقيقي هو اتباع ما بَعث الله به محمداً ﷺ من الإيمان والعلم

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/٣٠٨).

باطناً وظاهراً، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام والإيمان والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو عجمياً أو أسود أو أبيض ولا بكونه قروياً أو بدوياً»[1] اهـ.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لعمرك ما الإنسان إلّا بدينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام سلمان فارس
وقد وضع الشرك النسيب أبا لهب

ويشهد لهذا كله ما في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالحُ المؤمنين**»[2]

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص: ٤١٥).

(٢) «صحيح البخاري» رقم (٥٩٩٠)، و«صحيح مسلم» رقم (٢١٥).

فأخبر ﷺ عن بطن قريب النسب أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياء، إنما وليه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف، وأن الولاية لا تنال بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له.

ونسأل الله الكريم أن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا من عباده المتقين.

[١١]

التحذير من كبائر الإثم

إن مما اعتنى النبي ﷺ ببيانه في حجة الوداع التحذيرَ من الموبقات، والنهيَ عن كبائر الذنوب وعظائم الآثام ولاسيما الشرك بالله، وقتل الأنفس المعصومة، والزنى، والسرقة.

فعن سلمة بن قيس الأشجعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **«ألا إنما هنَّ أربع: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلّا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا»**[(١)]. رواه أحمد والطبراني والحاكم بإسناد صحيح[(٢)].

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٣٩)، والطبراني (٦٣١٧)، والحاكم (٤/ ٣٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٧٥٩).

(٢) وانظر في الصحيحين حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ذكر =

فحذر عليه الصلاة والسلام من هذه الكبائر العظيمة، والموبقات الوخيمة، ونهى عنها، وفي قوله: «**ألا إنما هنَّ أربع**» بيان لعظم خطر هؤلاء الأربع الموبقات، وأنهنَّ أكبر الكبائر وأخطرها.

والذنوب منقسمة إلى كبائر وصغائر، والكبيرة هي كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار، أو حدٍّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة بأن توعد فاعله بأنه لا يدخل الجنة، أو لا يشم ريحها، أو نفَى عنه الإيمان، أو قيل فيه من فعله فليس منا وأن صاحبه آثم، فهذا كلّه من الكبائر[1]. ويدخل في هذا: الشرك، والقتل، والزنا، والسرقة، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وشرب الخمر، والكذب، والغيبة، والنميمة وغيرها مما ثبت في النصوص أنه من الكبائر.

= مبايعة النبي ﷺ أصحابه على البعد عن هذه الأربع. البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٦٥٠ ـ ٦٥٢).

وقد مدح الله في مواضع من كتابه مجتنبي الكبائر وأثنى عليهم، ووعدهم بكريم المآب وعظيم الثواب والمدخل الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٣١].

وأخبر سبحانه أنه أحصى على العباد كل ما اقترفوه من صغير وكبير، وأن كل ذلك مسطر مكتوب يجده العبد أمامه حاضراً يوم القيامة ليجزيَ سبحانه الذين أساءوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ [القمر: ٥٣].

وتوعدهم على فعلها أعظم الوعيد، وكلما عظمت الكبيرة عظم الوعيد، واشتد العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٦٩].

فالكبائر متفاوتة في غلظها وكبرها، كما أنها تغلظ بتكرارها وبالإصرار عليها وبما يقترن بها من سيئات أخر، وأكبر الكبائر الأربع التي نص عليها ﷺ في الحديث المتقدم ونبّه عليها عموم الناس في حجته التي ودع الناس فيها، مؤكداً على التحذير منها، مشيراً إلى كبر خطرها وعظم ضررها على مرتكبها ومقترفها في دنياه وأخراه.

وأكبر هذه الأربع الإشراك بالله ﷻ وليس في الذنوب أكبرُ منه، ولهذا قدمه عليه الصلاة والسلام بالذكر، تنبيهاً بذلك إلى أنه أعظم ذنب وأكبر خطيئة، فهو ذنبٌ يحط بصاحبه يوم القيامة، ويكبُّه على رأسه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، وتحرم عليه الجنة فلا يشم لها رائحة ولا يذوق

منها لذّة ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكل ذنب دون الشرك يرجى لصاحبه المغفرة وإن عذبه الله في النار يوم القيامة فإنه لا يخلدْ فيها، وأما المشرك فلا مطمع له بمغفرة، ولا سبيل له لنيل عفو، ولا نجاة له من عذاب النار مخلداً فيها أبد الآبد.

قال ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبة تكون في حميل السيل»**. رواه مسلم(١).

ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) رقم (١٨٥)، عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وعجباً ثم عجباً لأمر المشرك يخلقه الله رب العالمين ويعبد غيره من حجر أو شجر أو قبر أو نحو ذلك مما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا عطاءً ولا منعاً فضلاً من أن يملك شيئاً من ذلك لغيره، ولهذا قال ﷺ عندما سئل: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله نداً وهو خلقك**»[1]، فأيُّ ذنب أعظم وأيُّ ظلم أشنع وأيُّ جرم أكبر من أن يُجعل المخلوق الناقص الضعيف شريكاً للرب الخالق العظيم؛ ولذا أخبر الله سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره في ثلاثة مواضع من كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً وندا وشريكاً، تعالى الله عما يشركون.

ثم يلي الشرك في الخطر الثلاث المذكورة في الحديث: قتل الأنفس المعصومة، والزنا، والسرقة. وهي كلها اعتداء في حق المخلوقين، كما أن الشرك اعتداء في حق الخالق سبحانه.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقتل الأنفس التي حرّم الله قتلها اعتداء على الدماء المعصومة، والزنا اعتداء على الأعراض المصونة، والسرقة اعتداء على الأموال المحترمة، وكل ذلك حرام، وقد سبق ذكرُ قولِ النبي ﷺ في خطبة عرفة، وكذلك في خطبته في منى: «**ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[1]، فهناك بيّن حرمتها، وهنا حذّر من انتهاكها.

ومما ينبغي أن يعلم أن كل من تاب من أيِّ ذنبٍ كان، فإن الله يتوب عليه، فالتوبة تهدم ما كان قبلها كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة ﷺ.

[١٢]
لا يدخل الجنّة إلّا مؤمن

إن أعظم ما قرّره رسول الله ﷺ بكلماته النيرات، وعظاته البالغات في حجة الوداع بيانُ مكانة الإيمان، وأنه أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن الجنة دارُ اللّذّة والحبور والهناءة والسرور لا يدخلها إلا أهل الإيمان، ومن لم يكن مؤمناً فالجنة عليه حرام ولا يشم ريحها، بل يكون مآله إلى نار جهنم خالداً مخلداً فيها.

ففي مسند الإمام أحمد رحمه الله من حديث بشر بن سُحيم قال: خطب رسول الله ﷺ في أيام التشريق أنه: «**لا يدخل الجنة إلّا مؤمن**»[١].

وبعث من بعث من أصحابه ببيان ذلك وإعلانه في

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ٤١٥) و(٤/ ٣٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «إرواء الغليل» (٤/ ١٢٩).

الناس معذرةً إلى الله، وإقامةً للحجة على العباد، كما في المسند عن بشر أيضاً ﷺ: «أن رسول الله ﷺ أمر أن ينادى أيام التشريق أنه **لا يدخل الجنة إلّا مؤمن**»[1]، وفي بعض الروايات أنه ﷺ بعث بشر بن سُحيم فأمره أن ينادي: «**ألا إنه لا يدخل الجنة إلّا مؤمن**»[2]، وروى مسلم في صحيحه عن كعب بن مالك ﷺ: «أن رسول الله ﷺ بعثه وأوسَ بن الحدثان أيام التشريق فنادى: أنه **لا يدخل الجنة إلّا مؤمن**»[3].

وكان عليه الصلاة والسلام بعث عليّاً ﷺ إلى مكة بهذا الإعلان في العام الذي قبله، ففي المسند عن محرَّر بن أبي هريرة عن أبيه أبي هريرة ﷺ قال: «كنت مع عليّ بن أبي طالب حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه **لا يدخل الجنة إلّا مؤمن**» الحديث، قال أبو هريرة: «فكنت

---

(١)(٢) «مسند أحمد» (٣/ ٤١٥) و(٤/ ٣٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «إرواء الغليل» (٤/ ١٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» رقم (١١٤٢).

أنادي حتى صَحِل صوتي»[1] أي: بُحَّ وغلظ.

وأيضاً بعث بهذا الإعلان قبل ذلك غير مرّة.

ففي صحيح مسلم، لما كان يوم خيبر قال رسول الله ﷺ: **«يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلّا المؤمنون»** قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون[2].

وأيضاً قال لبلال رضي الله عنه: **«يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلّا مؤمن»**[3]. رواه البخاري ومسلم.

وفي هذا المعنى وردت أحاديثُ كثيرةٌ نصحاً للعباد، وإعذاراً إلى الله، وإقامة للحجة، وتبياناً لمقام الإيمان وشأنه، وأنَّ نعيم الله وثوابه ورضاه لا ينال إلّا بالإيمان. فالمؤمنون هم أهل نعيم الله وثوابه وجنته، ومن سواهم لا

---

(١) «مسند أحمد» (٢/ ٢٩٩)، و«سنن النسائي» (٢٩٥٨). وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٢٩).

(٢) «صحيح مسلم» رقم (١١٤)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٦٠٦) واللفظ له، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مطمع لهم في نعيم، ولا سبيل لهم إلى فوز، وما لهم في الآخرة من خلاق.

ومن قامت عليه حجة الله، وبلغته دعوة المرسلين فأبى عن القبول أو كذب المرسلين، أو استكبر عن طاعة رب العالمين، أو كان من المعرضين، فليس له يوم القيامة إلّا النار هي مأواه وبئس المصير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٠ ـ ٤٣].

فالجنة دار أهل الإيمان وطاعةِ الرحمن، ومن عداهم سواء كانوا ملاحدة لا يؤمنون بالله، أو كفاراً يكذبون به

وبرسوله، أو مشركين يعبدون معه غيره، أو منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فهم من جُثا جهنم وحطب النار، يخلدهم الله فيها أبد الآباد، لا ينقذهم منها منقذ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها بل يزداد، قال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠][1]. هذا وأهل الإيمان في الجنة يسعدون، وبنعيمها يتمتعون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

وبهذا تظهر مكانة الإيمان العالية ومنزلته السامية، فهو أعظم المطالب، وأجل المقاصد، وأنبل الأهداف، إذ به ينال العبد سعادة الدنيا والآخرة، ويدرك أهم المطالب وأجل الغايات، ويظفر بالجنة ونعيمها، وينجو من النار وسخط الجبار، وينال رضى الرب فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذّذ بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضَرَّاء مُضرة ولا

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره: «وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها».

فتنة مُضلة، وما يناله أهل الإيمان من الثمار والآثار المباركة أمر يفوق الحصر ويتجاوز العد، وبالجملة فالخير كلّه فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والدمار والشر كله إنما هو بفقده ونقصه.

والإيمان إذا كان كاملاً قد أدى به صاحبه الواجبات، وترك المحرمات فإنه يمنع دخول النار، ويدخل صاحبُه الجنة بدون حساب أو عقاب، وإذا كان ناقصاً بترك واجب، أو فعل محرم فإنه يمنع صاحبه من الخلود في النار، كما تواترت النصوص عن النبي ﷺ بأنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان ولو يسيراً[1]، ثم يكون مآله إلى الجنة بعد أن يطهر بالنار من أدران ذنوبه وأقذار معاصيه.

---

(١) عن أنسٍ رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذَرَّة من خير**». رواه البخاري (٤٤)، ومسلم [٣٢٥ ـ (١٩٣)].

فمنازل الناس في الآخرة إنما هي بحسب حظهم من الإيمان زيادة ونقصاً، وجوداً وعدماً، والتوفيق بيد الله وحده، والمنة كلها له سبحانه ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات:١٧]، ولهذا إذا دخل أهل الإيمان الجنة وتبوءوا منازلهم فيها قالوا معترفين بمنّ الله وفضله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]، فجمع سبحانه في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بالنعمة حيث أوصلهم إلى هذه المنازل، وبين ذكر السبب الذي نالوا به هذه المنّة وهو الإيمان وأعماله، فنسأل الله أن يمنّ علينا بالإيمان الصادق، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

[١٣]
وصايا متنوعة

وثمت أمور عديدة تناولها النبي ﷺ بالبيان في خطبه ومواعظه في حجة الوداع تمس حاجة الناس إليها في صلاحهم مع ربهم وفي صلاحهم مع أنفسهم ومع مَن يعاشرون، يضيق المقام عن تفصيلها، لكن أشير إلى طائفة منها على سبيل الإجمال.

فمما بينه ﷺ في خطبه ومواعظه وتذكيره في حجته تأكيدُه على لزوم سنته واتباع هديه، وسلوك نهجه، والحذرِ من البدع والأهواء، ومن القول عليه بلا علم، أو تعمد الكذب عليه، ومفارقة هديه.

روى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن مرة قال: سمعت مرة قال: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة

فقال: «**أتدرون أيُّ يوم يومكم هذا؟**» قلنا: يوم النحر... وذكر الحديث وفيه: «**ألا وإني فرطُكُم على الحوض أنظركم، وإني مكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي، ألا وقد رأيتموني وسمعتم مني، وستسألون عنّي، فمن كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار، ألا وإني مستنقِذٌ رجالاً أو ناساً ومستنقَذٌ مني آخرون، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[1].

فهذا تحذير بالغ من البدع والأهواء والإحداث في الدين، وتحذير من الكذب عليه ﷺ والقول عليه بلا علم فإنه من كبائر الذنوب، وعظائم الآثام الموجبة لدخول النار.

ومما بينه ﷺ في حجة الوداع الحث على برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتحذير من الاعتداء على حقوق

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤١٢)، وقال محقِّقُوه (٣٨/ ٤٨٢): إسناده صحيح.

وهو في «سنن ابن ماجه» (٣٠٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٩٩).

الآخرين، أو النيل من أعراضهم واغتيابهم.

روى الطبراني في المعجم الكبير عن أسامة بن شَريك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يقول: **«أمَّك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك»** قال: فجاء قوم فقالوا: يا رسول الله قَتَلَنا بنو يربوع؟ فقال: **«لا تجني نفسٌ على أخرى»** ثم سأله رجل نسي أن يرمي الجمار؟ قال: **«ارم ولا حرج»** ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف، فقال: **«طف ولا حرج»** ثم أتاه آخر حلق قبل أن يذبح، قال: **«اذبح ولا حرج»** قال: فما سألوه يومئذ عن شيء إلّا قال: **«لا حرج ولا حرج»** ثم قال: **«أذهب الله ﷻ الحرج إلّا رجل اقترض مسلماً فذلك الذي حرج وهلك»** وقال: **«ما أنزل الله ﷻ داءً إلّا أنزل له دواءً إلّا الهرم»**[1].

ومما بينه كذلك التحذير من الجناية على الآخرين وأن من يجني لا يرجع وبال جنايته من الإثم أو القصاص إلّا

---

(١) «المعجم الكبير» رقم (٤٨٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٤٠٠).

إليه، وحذر من الشيطان وكيده وأنه لما رأى قوة التوحيد والإيمان يئس من وجود الشرك في المصلين، ولا يعني هذا اليأس انتفاء وجود الشرك، وأخبر أنه سيكون له أتباع يطيعونه فيما يدعوهم إليه، وحذر من الربا ومن الظلم.

روى ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: «**يا أيها الناس ألا أيُّ يوم أَحْرَمُ؟** ثلاث مرات، قالوا: يومَ الحج الأكبر، قال: **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا لا يجني جانٍ إلّا على نفسه، ولا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والده، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها، ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع، وأول ما أضع منها دمُ الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا وإنَّ كلَّ رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، ألا يا أمَّتاه، هل بلّغت؟**

ثلاث مرات، قالوا: نعم، قال: **اللهم اشهد**، ثلاث مرات»[1].

ومما بينه كذلك أنَّ الله قسم المواريث في كتابه وأعطى كلَّ إنسان نصيبه من الميراث، وأخبر أنَّ الولد للفراش أي لصاحب الفراش وأن العاهر له الحجر، وحذر من أن ينتسب الرجل إلى غير أبيه.

ففي المسند عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى وهو على راحلته وهي تقصع بجرَّتها، ولُعابُها يسيل بين كتفيَّ، فقال: «**إنَّ الله قسم لكلِّ إنسان نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيةٌ، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ألا ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه رغبةً عنهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً**»[2].

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٠٥٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٩٧).

(٢) «مسند أحمد» (٤/١٨٦)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧١٢). وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٧٩٤).

وبيّن أيضاً فيما بيّن قصر الدنيا وسرعة زوالها، وحذّر من الاغترار بها حيث قال للناس قبل غروب الشمس وهو واقف بعرفة: **«أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»**[1]. رواه أحمد.

وحثّ الناس على السكينة والرفق وعدم التدافع، فعند الانطلاق من عرفة قال: **«يا أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار»**[2] رواه النسائي. ولما تزاحم الناس عند الجمرات قال ﷺ: **«يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم فارموا بمثل حصى الخذف»**[3] رواه أحمد.

---

(١) «مسند أحمد» (٢/ ١٣٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال محققوه (١٠/ ٣١٤): «حديثٌ صحيح لغيره».

(٢) «سنن النسائي» (٣٠١٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٤٦).

(٣) «مسند أحمد» (٦/ ٣٧٦)، و«سنن أبي داود» (١٩٦٦) من حديث أم جندب الأزدية رضي الله عنها. وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٨٩٠).

وحذر الأمة من فتنة الدجال وذكر صفته، ففي الصحيحين[1] عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: كنا نتحدث عن حجة الوداع، والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجةُ الوداع، حتى حمد اللهَ رسولُ الله ﷺ وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال: «**ما بعث الله من نبي إلّا أنذره أمته؛ أنذره نوح والنبيون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم، إن ربكم ليس بأعور، إنه أعور عين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية**» الحديث[2].

إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة، والعظات البالغة، والتوجيهات السديدة، نصحاً للأمة وبياناً للدين. فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله عليه وملائكته والصالحون من عباده وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) «صحيح البخاري» رقم (٤٤٠٢) والسِّياق له، و«صحيح مسلم» رقم (١٦٩).

(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/١٠٧).